

## هدى للمتقين

### معجزة القرآن:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَهُ يَجْعَلُ لَهُ عِوَجًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: 16]، سبحانه هو الملك المعبود ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: 14 - 16].

قامت السموات والأرض بأمره، وجرت فيها الحياة بقضائه وقدره، أنشأنا في الأرض جميعاً، وجعل فينا نسباً وصهراً، واستعمرنا فيها أجيالاً وأمماً، وقسم بيننا الرزق والقوت. سبحانه له البقاء والثبوت وهو الحي الذي لا يموت، هو الخافض الرافع، وهو المعز المذل وهو على كل شيء قدير وإليه المصير.

وصف نفسه وعلمه سبحانه فقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا يَأْسِسُ فِي الْإَرْضِ عِوَجًا إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]. ونشهد أن سيدنا ومولانا وحبينا وشفيعنا محمد بن عبد الله عبده ورسوله وصفه من خلقه وخليله

النعمة المهداة والرحمة المسداة، جاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، أذى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها زائع إلا هلك ولا يضل عنها إلا ضال.

اللهم صلّ وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه،  
وبعد.

إن القرآن من الرحمن، ومعجزاته لا يحصيها زمان ولا أوان ولا مكان ولا تحيط بها الأذهان.

قطوفه قريبة سهلة المستفاد، ومناله بعيد منير مبهر، في كل ناحية منه رشاقة وإعجاز حير الناس وليس له مثيل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

### المعجزة البلاغية:

القرآن كلام الله وليس بعد كلام الله كلام، ولا بعد كتاب الله تعالى ما يتلى، لا يقدر عليه إلا الله، أعجز الفصحاء وأعيا الأدباء، لا يستطيع أحد من الناس أن يأتي بكلمة منه أو ينقل منه سطرًا أو يضاّد فيه فكراً.

تنظر إلى الآيات القرآنية تجد أن الله تبارك وتعالى يصنع المعجزات في كلمات رتبت ترتيباً كحبات اللؤلؤ وكما ترتب الزهرات لا يمكن تقديم كلمة منه أو تأخيرها.

كان العربي الفصيح يسمع الآيات فتأخذ بمجامع قلبه وعقله وهو أدرى الناس باللغة وإعجازها وبلاغتها.

سافر عمرو بن العاص من مكة إلى حدود الشام، قبل إسلامه، فالتقى بمسيلمة الكذاب، وكان يدّعي أنه يوحى إليه، فقال مسيلمة: ما هي أخبار صاحبكم يا عمرو؟

قال عمرو، وكان ما زال على شركه وكفره: لقد كان آخر ما سمعت منه ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: 1-3].

سمع مسيلمة هذه السورة فقال: أنا أيضاً أنزل علي قرآن مثل هذا.

قال عمرو: وما هو!

قال مسيلمة: وبر يا وبر لك أذنان وصدر وفي الوجه حفران ذكر (والوبر حيوان يشبه الجمل).

قال عمرو: اسمع يا مسيلمة إنك تعلم أنني أعلم أنك كاذب.

أبو الوليد أفصح أهل مكة جاؤوا به ليحاور الرسول ﷺ في القرآن فقالوا له: أنت أفصح واحد فينا ومعرفتك باللغة والبيان لا يضاهيها معرفة ونريدك أن تناقش محمداً فيما يقرأ علينا.

وتم اللقاء، فقال أبو الوليد أمام الجمع، تُقْصُّ علينا، أو أقص أنا عليك؟

قال الرسول ﷺ: أسمعك قرآناً وقل رأيك فيه بعد ذلك،  
وقل فيه ما تشاء.

قال أبو الوليد: أسمعك.

فقرأ رسول الله ﷺ ﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿٢﴾  
إِلَّا نَذِيرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾  
الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا  
بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِن يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ  
وَأَخْفَى ﴿٧﴾ [طه: 1 - 7].

قال أبو الوليد: حسبك.

قال كفار قريش: إنما جئنا بك لِنُتَصِرَ لنا فتنصير له؟ قال:  
لقد قلتُم إنه كاهن وما هو كاهن فأنا أعرف سجع الكهنة  
والعرافين، وقلتُم إنه شاعر وما هو بشاعر فأنا أعرف شعر الشعراء  
وهزجهم.

قال كفار قريش: لئن سمعتك قريش لتبعنه بأجمعها وإنا  
نريد منك قولاً شافياً في محمد وإن أردت ملكاً ملكناك علينا  
وأنت سيد الناس إن غلبت محمداً على أمره.

قال أبو الوليد: أمهلوني.

دخل إلى داره، وأقفل عليه بابه وقعد يدرس الأمر  
ويتأمله، هل يتبع محمداً ويعادي قريشاً أم يطيع قريشاً ويصير  
سيد الناس؛ وأخذ يقلب الأمر في فكره.

وكان الرسول ﷺ بعد أن رأى تهليل وجه أبي الوليد لسماع القرآن قد أمل أن يؤمن .

وخرج أبو الوليد إلى قريش بعد أن غلب الطمع على قلبه فقال: لقد عرفت ما فعل محمد .

قالوا: وما هو؟

قال: ما هو إلا سحر يؤثر، ما هو إلا قول البشر. حزن الرسول ﷺ حزناً شديداً لأن هذا الرجل آثر الحياة الدنيا على الآخرة، ونزل فيه الوحي .

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَأَرَّهُنَّ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَفَرًا ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَفَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا بَقِي وَلَا نَذْرٌ ﴿٢٨﴾ لَوْ أَمَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيَّهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: 11 - 30] .

انظر إلى أسلوب القرآن الكريم في وصف هذا الرجل وما فعل، لكأنه آلة تصوير تصور حركاته وسكناته أثناء تفكره بهذا الأمر ثم كيف اتخذ قراره وآثر الحياة الدنيا ثم ذكر عقابه وما سيناله من عذاب بنفس طريقة تصرفه وتفكره دون تغيير في لغة الخطاب أو الأسلوب لتستكمل الصورة تأثيرها على السامع .

لقد نقلنا القرآن الكريم إلى داخل الغرفة التي قعد فيها هذا الرجل وجعلنا نراقب تصرفاته لحظة بلحظة .

### قصة أصحاب الجنة:

كان لرجل ثلاثة أولاد، وله بستان أنعم الله به عليه وكان يعطي نصيباً منه يوم جذاذه للفقراء والمساكين؛ فلما آلت الأموال بعد وفاته إلى أولاده؟ قال أكبرهم: إن أبانا كان يعطي الفقراء والمساكين من بستاننا كأنهم شركاء لنا فيه .

قال أوسطهم: إني أخاف أن تصيبكم جائحة من ربكم تذهب بمالكم لأنكم تريدون تغيير عادة أبيكم .

قال الأصغر: لن يدخلها علينا مسكين، وسنجدها في الغد؛ ونسوا أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون .

وقد قصَّ الله سبحانه وتعالى علينا خبرهم بصورة جعلتنا كأنما كنا معهم نسمع ونرى .

### الإعجاز التصويري في القصص القرآني:

إن القصص القرآني يحملنا أولاً من الجو الذي نعيش فيه إلى جو القصص الذي يريد أن يعظنا به لكي ندرك أبعاد القصة بكاملها ومن كل جوانبها ويجعلنا نعيش مع أهلها ونراهم ونحس بما فعلوا وبما حل بهم .

وفي قصة أصحاب الجنة أي البستان نرى الأحداث ولا نسمع أخبارها فقط ففيها تصوير بالكلمات.

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم: 17].

أي أن أولاد الرجل الذين ورثوا هذه الجنة قد اجتمعوا ليلاً، وتداولوا أمرهم بينهم وكان آخر مداولاتهم أنهم أقسموا على جذاذ وجني ثمر بستانهم في الصباح الباكر ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم: 18] أي لم يقولوا: «إن شاء الله» وكان اتفاقهم على الاستئثار بثمر البستان فلا يعطون منه للفقراء والمساكين الذين اعتاد والد هؤلاء الثلاثة أن يهبهم بعض ثماره.

لقد صمموا على حرمان هؤلاء الذين قسم الله لهم رزقاً من هذا البستان وفي فعلهم هذا تناول لا بد من محاسبتهم عليه فكان لا بد من نزول العقاب، وناموا وهم مزعمون على أن يكون استيقاظهم باكراً لإنجاز هذا الأمر ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القلم: 19] أي نزل بها عقابهم ليلاً، أما هذا الطائف فلا نعلم ما هو، لعله نمل أو جراد أو صاعقة أحرقت أشجارها، أو داء أسرع في ثمارها فأفسدها جميعاً أو أي شيء آخر.

لم تذكر الآية هنا نوع الطائف الذي طاف بالبستان لأن العقاب قد يكون لهؤلاء بالجراد ولغيرهم ممن يفعل فعلهم بصاعقة تحرق الشجر ولآخرين بسيل يجرف الأشجار وقد يكون

بأي طريقة تناسب الزمان والمكان دون أن تؤذي بساتين غيرهم من الناس ولذلك جاءت الآية هكذا دون تحديد كيفية العقاب ولكنها أخبرتنا بالنتيجة ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَمَّجَت كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: 19 - 20].

لقد ظنوا أنه ليس بينهم وبين جذاذ بستانهم إلا هذا الليل، وهي فترة قصيرة لن يحصل فيها أشياء كثيرة، لكن هذا الليل القصير كان كافياً ليصير هذا البستان وكأنما قد سبق جذاذه واجتناء ثماره فلا ثمر فيه ولا فائدة منه مع طلوع الصباح الذي يريدون الغدو فيه ﴿فَنَادَوْا مُصِيبِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القلم: 21]، ففي الصباح الباكر؛ وقبل أن يستيقظ الناس أخذ بعضهم يوقظ البعض الآخر ليكون خروجهم إلى بستانهم باكراً فلا يراهم أحد، خصوصاً المساكين الذين اعتادوا على نيل نصيبهم من هذا البستان طيلة حياة والد الشبان الثلاثة.

أما هدف الاستيقاظ الباكر فقد أوضحته الآية وذكرت لنا حوارهم وهو ﴿إِن أَعْدُوا عَلَيَّ حَرْبًا أَوْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [القلم: 22] أي هلم أسرعوا وغدوا الخطى نحو البستان إن كنتم تريدون اجتناء ثماره لأنفسكم أما مسيرهم إلى البستان فقد وصفته الآية التالية.

قال تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾﴾ [القلم: 23] أي كانت خطواتهم سريعة يتهامسون بها فيما بينهم كي لا توقظ

أصواتهم أحداً من الناس، وهذا يعني أنهم مروا خلال قريتهم، وعبروا عدة منازل في طريقهم ولو كان مسيرهم في خلاء لما احتاجوا أن يتخافتوا وأن يكون كلامهم همساً ومسارّة، وكان موضوع حديثهم ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ [القلم: 24] فإن بقي فيها شيء مما لا خير فيه إلى الغد فلربما نتركه للمساكين، وهذا يعني أن أحدهم كان يعارض منع المساكين منعاً كاملاً فأرادوا استرضاءه بالكلمات فقط، فقالوا له: إن بقي شيء نتركه للمساكين وهم يضمرون أن لا يتركوا فيها شيئاً.

﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدْرَيْنَ﴾ [القلم: 25] فدخلوها مصممين على تنفيذ ما عزموا عليه ناسين أن الله الذي أورثهم هذه الجنة عن أبيهم قادر على حرمانهم منها بجائحة تصيبها، أو صاعقة تحرقها، أو ريح تقتلعها، أو نمل ينخر ثمارها أو عدو يباغتهم فيخرجهم منها ومن بلدهم كله وأنه سبحانه إنما حفظها لهم ببركة إحسان أبيهم إلى الفقراء والمساكين.

دخلوا إلى البستان فوضعوا السلال جانباً ثم التفتوا إلى الأشجار ليقرروا أين يبدأون فماذا رأوا؟

لقد رأوا بستاناً لا ثمر فيه أو أشجاره محطمة لا ثمار فيها، المهم أن ما رأوه كان عجباً ومفاجأة كبرى.

البساتين حولهم لم يصبها شيء وبستانهم وحده قد اجتاحتها الجائحة التي ذهبت بثماره وأتلفتته.

إذن فالأمر ليس من فعل عاصفة هبت ليلاً، فلو كانت عاصفة عامة لأتلفت كل البساتين، ولو كانت صواعق لضربت إحداها على الأقل شجرة في بستان آخر.

لو كان جراداً أو نملاً لمس أشجار غيرهم في طريقه ولو مساً فخرّب بعضها، وبالتالي فالعقاب الذي حلّ بهم واضح أنه نزل ببساتينهم وحده فقط، ولذلك ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [القلم: 26] ولعلنا دخلنا بستاناً آخر، فجروا وركضوا فيه من مكان لآخر ليتأكدوا أنهم لم يخطئوا فلما تأكد لهم أنه بساتينهم بعينه قالوا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: 27]، فقد حرّمنا الله عز وجل من اجتناء ثمار بستاننا وأخذوا يتفكرون في سبب هذا العقاب الذي حلّ بهم ويتداولون أمرهم بينهم ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [القلم: 28] أي عدم ذكركم الله وعصيانكم له هو الذي تسبب بحرمانكم فأقروا بذنبهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: 29] وقد ظلمنا أنفسنا فيما انتويناه من الاستئثار وحدنا بنتاج هذا البستان وترك عادة أبنينا؛ وأخذ كل واحد منهم يحاول التملص من هذا الذنب ويلقيه على الآخر ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَومُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [القلم: 30].

الصغير يقول للكبير: أنت الذي حرضتنا على هذه النية التي أذهبت ثمرنا، ويرد الكبير: لقد أخذك الحماس أكثر مني، والأوسط يقول: لقد نصحتكم فلم تسمعوا لنصحي.

ورد عليه الكبير: لو أنك أصررت على نصحك ولم ترض  
 لربما كنا خضعنا وقبلنا برأيك لكنك لم تصدق أننا سنفعل ذلك  
 حتى أخذك الطمع فجارتنا ولو كنت مقتنعاً بقناعة حقيقية ما كنت  
 وافقتنا وخرجت معنا.

أدركوا جميعاً بعد طول حوار أنه كلهم مشتركون في الإثم  
 ﴿قَالُوا يَوَيْلًا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: 31].

لقد تجاوزنا حدنا وتناسينا أمر ربنا ووصية آيينا، وتملك  
 الطمع قلوبنا، وأردنا أن نظلم الفقراء نصيهم فكان جزاؤنا أن  
 حرمنا، وهذا جزاء وفاق لئوايانا.

ندموا على ما فرطوا من أمر ربهم وأعلنوا توبتهم آمليين أن  
 يبدهم ربهم خيراً مما حرّمهم ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ ولن  
 نطلب الخير من سواه ولن نطمع بالاستئثار فيما يرزقنا ﴿إِنَّا إِلَىٰ  
 رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: 32].

ولذلك جاءت العظة بعدها ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ يصيب به الله من  
 يعصاه ويظن أن الدنيا وخيراتها دائمة له ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا  
 يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 33].

إن عناصر القصة كاملة.

أبطال القصة: أولاد الرجل الثلاثة.

أماكن حدوثها: دارهم، والطريق إلى البستان، والبستان.

الزمان: مساء يوم الحصاد وصباح اليوم التالي باكرأ.

الحوار: مذكور بألفاظه .

لو أراد مصور أن يصور قصة كاملة الأركان، تامة العناصر لوجد في هذه القصة المذكورة في سورة القلم عناصر رواية كاملة بأحداثها الأساسية والثانوية وأبطالها الرئيسيين والثانويين، والعقدة والحل والعظة البالغة في آخرها.

إنك عندما تقرأ هذه الآيات من سورة القلم تحس بشخص أبطالها وأفكارهم وتسمع كلامهم وحوارهم بل وتكاد تقرأ أفكارهم فنواياهم أمامك واضحة لا لبس فيها، لأن الله سبحانه وتعالى قد سمع حتى نواياهم فنقلها إلينا في أي كتابه العزيز لتكون عظة وعبرة لنا ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4]، وعندما تسمع نهاية القصة وترى ما حل بهم تتذكر قول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 284].

### المشهد القرآني:

إنك، عندما تقرأ الآيات التي تصف بعض الأحداث تحس أنك أمام مشهد من نوع خاص، مشهد تتحرك فيه الأحداث وكأنها تحصل أمامك لحظة القراءة .

إن قراءة الآيات التي تصف أحداث يوم القيامة يجعلك تحس بهولها، فكل شيء يدمر والصمت يتشر، صمت رهيب يأخذ بمجامع القلوب، وتقشعر لهوله الأبدان.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: 105] فتتحيل الجبال تتداعي وتنهار فماذا سيحدث بعد نسف الجبال ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: 106، 107] وكيف ستكون حال الناس، إنهم صامتون خاشعون قد أخذت الأحداث بمجامع نفوسهم، يريدون الفرار ولا مفر فيدعوهم الداعي فيتبعونه دون أن ينسوا بينت شفة ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ [طه: 108] فلا يخالفه أحد ولا يبحث عن طريق آخر ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ مع أن عادة الناس في أحداث مماثلة في أيام الحياة الدنيا الصراخ وطلب النجدة ومناداة بعضهم على بعض ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108]، أما الوجوه التي اعتادت أن تنظر باستكبار وصلف فقد عنت وخضعت ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: 111].

أما في سورة الفرقان فيصور لنا مشهد يوم القيامة وحال الكافرين فيه بالتفصيل، تفصيل يجعلنا نخشى أن نكون معهم ونلاقي ما يلاقون ونسمع ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا وقد آن أوان حسابه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُتُكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: 21] وهذا الاستكبار والعتو سنرى حسابه في الآيات التالية ونسمع بكاءهم وندمهم وصرير أسنانهم ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكُتُكَةَ﴾ [الفرقان: 22] وهذا لا يكون إلا يوم القيامة ﴿لَا بُشْرَى

يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿ [الفرقان : 22] فقد رأوا ما طلبوا رؤيته، ولكن بعد أن كفروا وظلموا واستحقوا العقاب فماذا بإمكانهم أن يقولوا: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان : 22] أما القصور والدور والجاه والسلطان الذي اتخذوه وسيلة للاستبداد والظلم في الدنيا فكانه لم يكن ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ ﴿ [الفرقان : 23] .

كيف تكون حال الطائعين العابدين ممن قضى الله بدخولهم الجنة؟ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ﴿ وَيَوْمَ تَشْقُقُ الْمَاءُ بِالْعَمِيمِ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان : 24 - 26] أما ملك الكافرين في الدنيا وتسلبهم فقد زال كأنه لم يكن ﴿وَكَانَ﴾ [الفرقان : 26] يوم القيامة ﴿يَوْمًا عَلَىٰ الْكٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان : 26].

يرى الكافر ذلك فيتأكله الندم وتملاً قلبه الحسرة، ولات ساعة مندم فهو قدم إلى ساعة الحساب والتراجع لم يعد ممكناً ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الْأَطْلَامُ﴾ لنفسه بكفره ولغيره بطغيانه وتجبره ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أسفاً وحسرة ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : 27] فلو فعلت ذلك لكان حالي حال المؤمنين ﴿يَوَالَتِي لَيْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان : 28، 29] ودعاني إلى الفوز فأثرت متابعة الشيطان ﴿وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلْإِنْسٰنِ خَدُوْلًا﴾ [الفرقان : 29].

إنه مشهد رهيب، مشهد يوم القيامة تصوره الآيات بتفاصيله ونرى فيه الكافرين يتبرأ بعضهم من بعض وكل واحد يريد النجاة بنفسه ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166] ثم نرى موقف الآخرين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَةٌ فَنَّتَبِرًا مِثْنَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ لكن أسقط في أيديهم جميعاً فلا منجى لهم اليوم من العذاب ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 167].

### أفواج أهل النار:

أما في سورة «ص» فنرى مشاهد أهل النار وأفواجهم تدخل فوجاً بعد آخر لكأننا في عرض متواصل لمشاهد تقشعر لهولها الأبدان وترتجف القلوب وتدمع العيون. انظر إلى بداية المشهد الذي يعدك نفسياً لرؤية ما بعده ﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرِّ مَثَابٍ﴾ [ص: 55]، إنه شر عودة يعودها مخلوق طاغ كفر بأنعم الله ﴿جَهَنَّمَ﴾ إنها مكان العذاب، النار التي تنتظر الطاعين ليكون عقابهم فيها، فكيف سيكون هذا العذاب ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ كما تصلى الشاة أو السمكة أي كما تشوى، ﴿فَيَنْسَ الْهَادُونَ﴾ [ص: 56] والمهد عادة يكون مكان الراحة لكنه بالنسبة لهم مكان العذاب؛ وعذابهم ليس بالنار وحدها فلا بد لهم من طعام وشراب ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ﴾ [ص: 57] ليس هذا فحسب فكل

طعام يقدم لهم هو من هذا النوع ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا ﴿٥٨﴾﴾  
[ص: 58].

لكن ما يكاد يستقر بهم المقام حتى يدخل فوج آخر  
﴿هَذَا فَوْجٌ مُّتَنَجِّمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ مِنْهُمُ النَّارُ ﴿٥٩﴾﴾  
[ص: 59] ولن يزيدنا وجودهم إلا أذى، بريحهم النتنة  
وصديدهم، وصراخهم ويرد الفوج الداخل عليهم قائلاً: ﴿بَلْ  
أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا﴾ بإغرائكم لنا للإقدام على  
الفواحش والظلم والطغيان ﴿فَيَسَّ الْقَرَارُ﴾ [ص: 60] الذي  
صار لكم مقاماً. ولذلك ترتفع الأصوات من الفوجين متهمة  
فوجاً ثالثاً على وشك الدخول ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾  
وكان السبب في دخولنا إلى جهنم ﴿فَرَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾  
[ص: 61] لكن الله جعل لكل منهم ضعفاً من العذاب وإن  
كانوا لا يعلمون ثم يأخذون بالبحث في جنبات النار عن  
الناس الذين عاشوا معهم وبين ظهرانهم في الحياة الدنيا  
﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا  
أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾ [ص: 62، 63] لكنهم لن  
يجدوهم لأن من يحسبه الطاغين من الأشرار هو من الأخيار  
﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: 64].

إنه مشهد كامل بكل أبعاده وحواره وتفصيله لخصام أهل  
النار فيما بينهم.

## مشاهد متقابلة:

تعرض سورة الصفات مشاهد متقابلة لتظهر مدى التضاد والتباعد والتناقض الكامل بين حال أهل الجنة وأهل النار. نرى في البداية دخول أهل النار إلى جهنم ﴿فَأَنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٩) وَقَالُوا يَا بُولُوكُنَا هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢١﴾ ﴿أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ [الصفات: 19 - 23] ثم نرى بعد ذلك مشاهد النار وحوار أهل النار وخصامهم، ويكون الرد عليهم: ﴿إِنكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٢٨) وَمَا تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ [الصفات: 38، 39]؛ ثم توصف لنا حال أهل النار كأننا نراها رأي عين ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤١) فَوَكَهَهُمْ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ [الصفات: 41 - 45] وتمضي الآيات في وصف حال أهل النعيم. وكما سمعنا حوار أهل النار نسمع حوار أهل الجنة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥١) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَهَذَا مِنَّنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلًا أَهْنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ [الصفات: 50 - 55] ثم وبعد أن رآه وسط جهنم يوجه إليه الكلام ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ﴾ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾ [الصفات: 56، 57]، ثم نرى طعام وشراب وحال أهل النار بعد أن رأينا حال أهل الجنة فيكون المشهد أشد وقعاً في النفس.

اللهم أجرنا من النار وما يؤدي إليها من قول أو عمل  
واجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاك، وصل اللهم  
على محمد وآله وأصحابه وسلّم؛ وسلام على المرسلين والحمد  
لله رب العالمين.

